الأزمة السورية كما رآها الشهيد ناهض حتّر

ورد كاسوحة *

لم تشهد أيّ قضية في العالم انقساماً مماثلاً لذاك الذي شهدته المسألة السورية، وهذا عائد إلى طبيعتها المفتقرة منذ البداية إلى عنصر الإجماع. وفي ظلّ هذا الافتقار، كان من الطبيعي أن ينقسم المشتغلون على هذه المسألة، ويتوزّعوا على أطراف الصراع المختلفة، تبعاً للانحياز الذي يعبّر عنه كلٌّ منهم. ولكن الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل أُضيف إليه فضلاً عن الانقسام العمودي، عدم قدرة التحليل السياسي على مواكبة التطوّر الذي يشهده الصراع، وهو ما جعل التحليل مرتبطاً بالموقف من الأزمة وأطرافها أكثر منه بالقدرة على تفكيكها والإمساك بتناقضاتها. قلّة قليلة هي التي استطاعت الجمع بين الموقف الذي يأخذ شكلاً عُصابياً في أحيان كثيرة والقدرة على التحليل بموضوعية شديدة، ولو شابها الانحياز إلى طرف دون آخر. إلى هذه القلّة ينتمي الشهيد ناهض حتّر، الذي لم يمنع الخلاف الدائم معه في الشأن السوري متابعته باستمرار، لكونه يمثل طرفاً أساسياً في الصراع، وحين يكتب تكون كتابته تعبيراً عن هذا الطرف الذي هو السلطة في سوريا وحلفاؤها من إيران إلى روسيا مروراً بحزب الله. «التمثيل» بهذا المعنى هو جزء من الفاعلية السياسية التي كان يتمتع بها الراحل، والتي مكّنته من اتخاذ مواقف واضحة لا يكون مضطراً فيها إلى التبرير أو التسويغ.

الخلاف حول سوريا

منذ البداية كان ناهض منحازاً إلى ما يعتبره خيار الدولة التي أُضطرّت إلى الدفاع عن نفسها في مواجهة تمرّد مسلّح مدعوم من الولايات المتحدة ودول الخليج. ومع أنّ هذا التوصيف لا يتطابق مع بدايات الأزمة، إلا أنه في نظر الراحل كان كذلك، وبسببه دخل في نقاشات لا تنتهي مع زملاء ورفاق له كانوا يرون أنّ الصدام الحاصل هو تعبير عن أزمة نظام وليس «أزمة مجتمع» كما يظنّ هو. وحين تطوّرت الأحداث وبدا بالفعل أنّ الانقسام آخذ في التحوّل إلى نزاع مسلح بدأ المنظّرون «للثورة» بتغيير مواقفهم، ولكن ليس إلى الحدّ الذي يجعلها متطابقة مع مواقف ناهض، فمواقفه كانت مرتبطة عضوياً بوجود السلطة هنا، وهذا كان يصعّب حدوث تقاطع بينه وبين الذين وقفوا بعد التطوّر الذي حدث على مسافة من السلطة و«التمرّد» معاً. هذه المسافة بقيت قائمة إلى حين ظهور النصرة وداعش في المشهد، حيث اتضح للجميع، بمن فيهم المختلفون مع الرجل، أنّ هذه هي القيادة الفعلية للتمرّد المسلح، وأنّ ما سبقها كان إيذاناً بالوصول إلى هذه الخاتمة. عند هذه النقطة بدا أنّ قراءته للمشهد كانت دقيقة بالفعل في توصيفها للخطر الوجودي على الدولة السورية، ومع ذلك، ظلّ الخلاف معه قائماً حول السبيل الأفضل لتفادي هذا الخطر أو إنهائه. فبينما كان يصرّ حتى

هل ثمة نموذج نظري للنضال الفلسطيني؟ [2/2]

أحمد قطامش *

أستهل حديثي بالتذكير بمقولة ماركس: «لا نعترف إلا بالتاريخ وعلم التاريخ»، وسوى ذلك هو مجرد خرافات ومزاعم. القبض على التاريخ مسألة في غاية التعقيد، لأن المؤرخين يعكسون موقفهم الإيديولوجي، أو يوظفون التاريخ بما يناسب الموقف الإيديولوجي. ولا اعتزم الغوص في هذا الموضوع، إذ حسبي أن أستخرج خمس مراحل مرت فيها المسيرة النضالية بالمجمل، والوطن المحتل خصوصاً.

المرحلة الأولى، 1967 ـ 1970: تأسست القواعد الفدائية في الأردن، وعبرت عشرات المجموعات الحدود، وغالبيتها استشهدت أو اعتقلت في مواجهة مباشرة مع قوات العدو. وهناك من تمركز في الداخل لبعض الوقت، وكان الشعار العام: «الكفاح المسلح» الذي بلغ ذروته في «معركة الكرامة». وانطلقت أعمال المقاومة في الوطن، وغلبت عليها المجموعات السرية التي اشتبكت مع الاحتلال بكافة الأشكال. وبخلاف الثورات الأخرى، فهذه السنوات غايتها تأكيد وجود شعب فلسطين وتأكيد هويته الكفاحية وإيصال القضية الوطنية إلى العالم، وبذلك تبددت تمنيات وثائق وزارة الخارجية الإسرائيلية في بداية الخمسينيات (الفلسطيني سيتحول لغبار الأرض)، وصرخة غولدا مائير، عندما قالت: «أين هو الشعب الفلسطيني؟».

وفي الأردن نشأ ازدواج للسلطة، سلطة المقاومة في مساحات واسعة وسلطة القصر. وازدواج السلطة قانون مؤقت في التاريخ كانت نهايته مجازر أيلول 1970 وتموز 1971، وانتهت الظاهرة الفدائية في الأردن التي يربطها بفلسطين حدود تصل إلى 650 كلم، فيما شكل الفلسطينيون ثلثي المجتمع. وفي مذكرات الرئيس الأميركي الأسبق ريتشارد نيكسون إشارة واضحة إلى تشكيل غرفة عمليات أميركية . أردنية لاقتلاع البندقية الفلسطينية. وقد غلب النموذج الفدائي المسلح على هذه المرحلة، وإن اشتملت على نضال «ناعم» بالتظاهر والتعبئة والإعلام. وكانت القواعد الفدائية في الأردن أقرب إلى قواعد ارتكاز. أما القواعد الحمراء، فتطلق على القواعد التي تقام على أرض الوطن، وشيء أقل من ذلك كان في قطاع غزة الذي تنتشر فيه البيارات والمخابئ والأوكار ومئات المطاردين، وكانت وتيرة مقاومته المسلحة أعلى من الضفة الفلسطينية. أما في أراضي الـ 48، فكانت الخصوصية تدفع باتجاه العمل الحزبي البرلماني وانتخاب السلطات المحلية وما يتصل بذلك من عمل إعلامي بوتائر منخفضة ما قبل يوم الأرض الذي كان منعطفاً عام 1976.

المرحلة الثانية، 1970 ـ 1982: تواصل النضال العصابي عبر الحدود وكذلك في الوطن، واستمرت الجهود لبناء امتدادات في الداخل، بما صاحبها من ضربات اعتقالية لا تتوقف، وتعاظم التمركز الفدائي في الجنوب اللبناني ومخيمات لبنان والتأطير الجماهيري في الوطن. تخلل هذه المرحلة انقسام سياسي عام 1994 ارتباطاً بانعقاد جلسة يتيمة في جنيف بين نهج التسوية ونهج القوى الرافضة، وصولاً إلى الحرب الأهلية في لبنان عام 1975 ـ 1976، حيث سالت دماء غزيرة لبنانية وفلسطينية.

لا يفيدنا كفلسطينيين أن يصل التناقض مع الأنظمة العربية إلى حد الصراع والمواجهة العسكرية الواسعة ارتباطاً بقراءتنا للوحة التناقضات، إذ إن التناقض الرئيسي يبقى مع المشروع الصهيوني وسياسات الاحتلال، لكن ما حصل في الأردن أو لبنان غير ذلك، حيث استنزفت البندقية الفلسطينية وجمهورها.

والنموذج في هذه المرحلة كان امتداداً للمرحلة السابقة، غير أن التأطير الجماهيري والنقابي بات أكثر وضوحاً كما خوض ما يشبه حرب أهلية.

المرحلة الثالثة، 1982 ـ 1987: كانت هذه السنوات عاصفة ومدمرة وخط فصل، أي ما قبل حرب وما بعدها 1982، حيث اجتاحت القوات الصهيونية جنوب لبنان، وصولاً إلى معارك بيروت الضارية. لقد خاضت المقاومة حرباً بكل ما في الكلمة من معنى، وسجلت مآثر وبطولات، وإن كانت قد اقتلعت في نهاية الأمر بعد 88 يوماً من حصار بيروت، وتشتتت في البقاع وسوريا والجزائر واليمن وتونس. وسقط في هذه الحرب نحو 30000 فلسطيني ومثلهم لبنانيون وسوريون، وقد استخدم العدو معظم قواته الجوية والبحرية والبرية.

وحرب الـ1982 كانت الأكبر والأكثر بسالة. وكما قال نابليون: «الهزيمة يتيمة والنصر له مئة أب»، فقد نشبت خلافات بين القيادات الفلسطينية وانشقت حركة «فتح» ودار قتال مرير بين جناحيها. ولئن كان هدف شارون من اجتياح بيروت تدمير البنية التحتية للمقاومة وإمرار الحكم الذاتي في الأراضي الفلسطينية، فقد نجح جزئياً في الأولى ومرر الثانية بعد نحو عقد. والخلاصة أن زخم البندقية في لبنان قد تقهقر، بل لم تعد الساحة اللبنانية قاعدة ارتكاز للمقاومة الفلسطينية، ورغم تأسيس جبهة المقاومة الشعبية من قوى يسارية، تقدم تيار جديد هو «حزب الله» الذي تعاظمت فعاليته وبات قوة الاشتباك الأولى مع القوات الصهيونية في الجنوب المحتل إلى أن حرر معظم الجنوب عام 2000.

والمظهر الأبرز في هذه المرحلة كان الحرب الدفاعية التي استخدمت فيها المصفحات والمدفعية والصواريخ والقتال بين شارع وشارع والتمركز على خط قتال من دون زحزحة مهما عظمت التحديات.

المرحلة الرابعة، «الانتفاضة الكانونية» من 1987 إلى 1992: إن اندلاع الانتفاض الشعبي في أواخر 1987، وإن كان بمشاركة شعبية عارمة وتدحرج كما التفاعل النووي وشمل كل الأراضي المحتلة عام 67، مع إسناد من الداخل الفلسطيني والشتات، فالمشاركة كانت متفاوتة بين طبقة اجتماعية وأخرى بين المخيم والمدنية والقرية، وبين الجيل الشبابي والجيل الأقدم وجيل الطفولة، وبين النساء والرجال، وبين قوة سياسية وأخرى، ولكن الجميع كان على خط المواجهة في الإضرابات العامة والعديد من التظاهرات. وكان للانتفاض قيادته الميدانية التي تعرضت للاعتقال غير مرة ومرجعيات قيادية أخرى ولجان شعبية في كل مكان. وقد تضافرت في الانتفاضة ركيزة ميدانية وتنظيمية وسياسية واقتصادية ومعنوية شعارها الناظم كان الحرية والاستقلال، وكانت محطة نوعية كبرى دفعت المسيرة الفلسطينية وحشرت سياسات الاحتلال في موقف دفاعي. فهي مبادرة شعبية تاريخية هجومية. لم تكن مسلحة أو عصياناً مسلحاً كما الانتفاضة الروسية عام 1917، وغلب عليها التحرك الشعبي السلمي، وإن اتسمت بعنف شعبي وسلاح ناري كمظهر ثانوي، أي إنها حيدت العسكرية الاحتلالية بقدر كبير ولم تحتضن دعوات العصيان المسلح المغامر الفاقد لشروطه، لأن الشعب غير مسلح، وهذا حال العصيان المفتوح الذي كان يمكن أن ينهي زمنها في غضون أشهر قليلة ارتباطاً بإمكانات الناس. أما المظهر الأبرز فيها، فكان الإضراب الجماهيري بمعدل 6 أيام شهرياً، بما جعلها تختلف عن ثورة 1936 وإضراب الأشهر الستة.

والنموذج والإضافة هنا، الانتفاض بخصائصه الفلسطينية إلى درجة القلق الاحتلالي من اندلاعه مرة أخرى، وكان التخطيط أن تكون نمط حياة تقوى الجماهير على احتمال استحقاقاته وتصل بالصراع إلى حالة الاستعصاء مهما طالت، غير أن انعقاد مدريد بعد الجولات التمهيدية لشولتز وبيكر أربكها وأضعف زخمها. وبين مدريد وأوسلو انطفأت من دون ثبات على نهجها والوفاء لتضحياتها.

المرحلة الخامسة، اتفاق أوسلو/ مرحلة أوسلو: انقسمت الانتفاضة وانقسم الشعب وانقسم النظام السياسي الفلطسيني برمته، فهناك من كانت حساباته (تثمير الانتفاضة بالتفاوض والوصول إلى حل سياسي)، وهناك من دعا لتحويلها إلى نمط حياة ورفض التثمير المتعجل.

جرى التفاوض السري علاوة على مدريد العلني، ووُقّعَ على مبادئ أوسلو من دون مشاركة أو علم قيادات الداخل أو مؤسسات «مت.ف» والأمناء العامين، يحدو القيادة الرسمية الفلسطينية آمال أن يكون ذلك مرحلة انتقالية تمهداً لكيان ما أو دولة ما، فيما القيادة الاحتلالية عدّت ذلك مصيدة للاعتراف بإسرائيل وإسقاط المقاومة المسلحة والتزام متطلباتها الأمنية، وهذا ما أعلنه رابين صراحةً فيما اعتبر بيريز الاتفاق «الانتصار التاريخي الثاني بعد إقامة الدولة». وتشكلت سلطة للحكم الذاتي الإداري المحدود.

وجاءت أحداث النفق التي مهدت لنهوض 2000 وتكتيك الاغتيال المأسس لأكثر من 500 ناشط فلسطيني واجتياح الضفة الفلسطينية وحصار تجويعي على غزة وانقسام فلسطيني وصل حد الاقتتال وسلطتين وكيانين، وجولات الحوار الفلسطيني الماراثونية. وتحول اتفاق «أوسلو» إلى مرحلة امتدت لأكثر من عقدين ولم يقد إلى سلام ولا استسلام، وجهاز وظيفي فلسطيني مكون من 170 ألف موظف وموظفة إضافة إلى 50 ألف في غزة وظفتهم «حماس» وعشرات آلاف المقاتلين ونهج تفاوضي يشتد حيناً ويخبو حيناً وثقافة استهلاكية وديناميات تفكيكية للشعب وحراك سياسي تراجعت فيه فصائل «مت.ف» وأصبحت فيه فصائل الإسلام السياسي ما لا يقل عن 40% من الخريطة السياسية، وتبدلت ثنائية فتح ـ جبهة شعبية وأصبحت فتح ـ حماس. وأثناء العدوان الأخير على غزة باتت الثنائية «حماس» . «الجهاد».

وتعرض القطاع لثلاثة عدوانات سقط فيها آلاف الشهداء، مع الدمار الهائل للاقتصاد الهشّ وفي العمران والبنية التحتية. ولكن هذه العدوانات لم تؤدِّ إلى كسر إرادة المقاومة ورفع الراية البيضاء، فقطاع غزة خاض حرباً دفاعية وباتت لديه قوة ردع معينة هي درجة من قوة ردع المقاومة اللبنانية.

غير أن العقل القيادي الفلسطيني لم ينفك يبحث عن وحدة وطنية على أساس برنامج سياسي يسعى فريق التسوية إلى أن يكون برنامج تسووي تحت قيادته، فيما يسعى الفريق الآخر إلى أن سيادة برنامجه بقيادته، ما هو مستحيل ما دام لا ينتقل فريق إلى مواقع الفريق الآخر. الممكن هو القواسم المشتركة والتعايش مع موضوعات الخلاف من خلال تنفيذ ما اتفق عليه في اجتماع عمان 2012، بتشكيل وانتخاب مجلس وطني للداخل والخارج كما يمكن إعادة تعريف السلطة بالنأي عن الحيز السياسي، والتصدي لمعضلات البطالة والفقر وتدهور القطاع التعليمي والصحي وإعادة هيكلة الموازنة وحماية ما بقي من أرض وقدس.

التاريخ مفتوح ولا نهاية له، ولا مرحلة أخيرة فيه، والأمس اشتمل على حرب عصابات وانتفاضة وتفاوض وحرب دفاعية وسياسة ناعمة وأخرى خشنة، فما هو النموذج المتوقع في الغد؟

ينبغي التأكيد أن المرحلة الراهنة مؤقتة وأن هناك ما بعدها، والمقاربة تزعم أن المحطة الحالية تستنفد طاقتها، وهي تقترب من خط النهاية، فمن أين تأتي المرحلة الجديدة؟ دولياً، لم يعد العالم أحادي القطبية، فبتدرج تشكلت التعددية القطبية، وإن كانت العولمة الرأسمالية الاحتكارية هي الأقوى من دون نسيان الأزمة الاقتصادية عام 2008، حيث استنزفت العالم بأكثر من 30 تريليون دولار ومديونية أميركا اليوم هي 17 تريليون وأوروبا أكثر من 10 تريليون دولار.

وقد تشكل محور اقتصادي جديد هو دول «البريكس» المكون من البرازيل والهند والصين وروسيا وجنوب أفريقيا، وهو يشكل 45% من البشرية و35% من الإنتاج العالمي، فضلاً عن «منظمة شنغهاي» للتعاون المتعدد الأبعاد.

إقليمياً، صعود قوة إيران، إذ بات لها نفوذ في العراق وسوريا ولبنان واليمن، فيما تشتد وتائر تناقضها السياسي مع السياسة الإسرائيلية، سواء إعلامياً أو عبر الحلفاء، إذ تنظر إسرائيل لها كأكبر خطر استراتيجي عليها بما ينطوي عليه من احتكاكات محتملة.

عربياً، تحولات عاصفة تشهدها المنطقة العربية منذ خمسة أعوام، أهمها الانتفاضة التونسية والمصرية. وهناك ما أصاب العراق وسوريا من تمزق ودمار يفوق الوصف وتمدد «داعش» كطبعة دموية. وبداهة أن هذه المعطيات لها إسقاطات على القضية

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير ـ المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريّم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات الوكيل الحصري ads@al-akhbar.com 01/759500
■ التوزيع شركة الوانك 15ـ01 /666314 ـ 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnews-paper